إشْكالِيَّةُ نِسْبَةِ (الصِّفَاتِ غَيْرِ اللّائِقَةِ) إلى الله في القُرْآنِ الكَرِيمِ

حسين عبد الأمير نجم النصراوي

جامعة المصطفى العالمية

فحوى البحث

اسماء الله الحسنى كلها مستقاة من القرآن الكريم وهي صفات نسبها الله –عز وجل –لنفسه، وللانسان المسلم أن يتسمى بالعبودية لها (عبد الله –عبد الكريم –عبد العزيز –عبد الملك... الخ). بيد أن هناك صفات وصف الباري –جل وعلا –نفسه بها، مما لايليق التسّمي بها مثل: الماكر– المستهزيء –المخادع... الخ. هذه الإشكالية التي هي لغوية اكثر منها عرفية، يعرض لها البحث ويعمل على حلّها، إذ يثبت أن مداليل هذه الصفات لايحط من شأن الذات الإلهية المقدسة اذا ما توغلنا في معرفة ما يعني (المكر) أو (المخادعة) أو غير ذلك بموجب السياق اللغوي والمعنوي عند العرب الذين لم يعترض منهم معترض عليها في عصر نزول القرآن الكريم.

بسم الله الرحمن الرحيم

من الإشكالات التي يتساءل البعض عنها أن القرآن الكريم يصوّر الله تعالى، بـان يـذكـر لـه صـفـات لا تنسجم مع الكمال والطهر والقداسة التي ينبغي أن يكون الإله عليها! ومن تلك الصفات مثلاً صفة المكر، وصفة الخداع، وصفة الكيد، وكذا صفـــة الاستهزاء، وصفة الاسـتـدراج. فهل مثل هـذه الصفات لائقة بشخص كامل!. فكيف بمن هو الكمال المطلق؟!. أم أنـه لا يُـراد بهذه الصفات معانيها الحقيقية؟.

في هـــذا البحث نريد أن نتعرض للصفات المذكـورة ونـحـاول أن نتبين ماهو المقصود الحقيقي منها، ومن ثمّ: هل يتسق نسبتها إلى الـذات الإلهية أم لا؟!.

نسبة (المكر -الخداع -الكيد-الاستهزاء-الاستدراج) إلى الله تعالى:

يقولون: إن الله -سبحانه -ينسب صفة المكر إلى نفسه في القرآن الكريم كما في قوله: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[سورة آل عمران: ٥٤].

وقوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[سورة الأنفال: ٣٠].

وقوله: ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[سورة الأعراف: ٩٩].

وقـــوله: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [سورة يونس: ٢١].

وقوله: ﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [سورة الرعد: ٤٢].

وكـذا صفة الخـداع: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾[سورة النساء: ١٤٢][1].

وصفة الكيد: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [سورة الطارق: ١٥ -١٦]، ﴿ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾[سورة الأعراف: ١٨٣].

وأيضاً: الاستهـــزاء: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ

(١) ينظر نقد قرآن (فارسي) ص٣٩٧.

بِهِمْ ﴾[سورة البقرة: ١٥]، وهكذا صفة الاستدراج: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[سورة الأعراف: ١٨٢].

المناقشة:

الجواب عن هذا الإشكال يذكره المفسرون عادة، ولكن لاندري لماذا لم يطرحه المشكل أو المُشكِلة ليجيب عنه ويرده!. وهذا نلاحظه لدى عامة من يطرحون هذه الإشكالات أنهم لايكلفون خاطرهم بمراجعة التفاسير ليروا ماهي الأجوبة التي ذكرت في هذا المجال، وإن طالعوها -فرضاً - فلا يتعرضون إليها ضمن مناقشتهم، وهذا مايسقط بحوثهم عن العلمية، فإن البحث العلمي يقتضي طرح كل مايمكن أن يطرح في الموضوع ثم مناقشته.

الجواب الأول:

وعلى كل حال فالذي ذكره عامة المفسرين هنا هو أن التعبير بـ(المكر) في هذه الآيات هو من باب تسمية الجزاء باسم الفعل، وهذا معروف عند العرب، أنّهم يعبرون عن جزاء الفعل باسمه من باب المشاكلة، ومنه قول الشاعر:

ألا لايجهلنْ أحدٌ علينا

فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

أي نجازي جهله[٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾[سورة الشورى: ٤٠]، فإنه من الواضح أن جزاء السيئة ليس هو سيئة في الواقع، أي ليس أمراً سيئاً، وإنما عبر عنه بذلك من باب المشاكلة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ [سورة البقرة: ١٩٤]، فإن ردّ الاعتداء لايُقال له اعتداء، ولكن عُبِّر بذلك أيضاً على طريقة تسمية الجزاء باسم الفعل مشاكلةً.

وفي (المُحكَم) لابن سيده: (سمي مجازاة الاعتداء بمثل اسمه، لأن صورة الفعلين واحدة وإن كان أحدهما طاعة والآخر معصية، والعرب تقول: ظلمني

(٢) ينظر: المرتضى، علي بن الحسين، الأمالي ج١ص٤٢.

فلان فظلمته، أي: جازيته بظلمه)[٣].

وفي لسان العرب: (وقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾، سماه اعتداء... لأن صورة الفعلين واحدة، وإن كان أحدهما طاعة والآخر معصية، والعرب تقول: ظلمني فلان فظلمته أي جازيته بظلمه... والأول ظلم والثاني جزاء ليس بظلم، وإن وافق اللفظ اللفظ مثل قوله: وجزاء سيئة سيئة مثلها، السيئة الأولى سيئة، والثانية مجازاة وإن سميت سيئة، ومثل ذلك في كلام العرب كثير. يقال: أثم الرجل يأثم إثماً وأثمه الله على إثمه أي جازاه عليه يأثمه أثاماً. قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴾)[٤].

وفي تفسير السمعاني: (وإنما سمى الجزاء على الظلم: اعتداء، على ازدواج الكلام، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾. وتقول العرب: ظلمني فلان فظلمته، أي: جازيته على الظلم. ويقال: جهل فلان عليّ فجهلت عليه، قال الشاعر:

(ألا لا يجهلهنْ أحدٌ علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا)

وقال آخر:

(ولي فَرسٌ للحلمِ بالحلمِ ملجَمٌ
ولي فرسٌ للجهلِ بالجهلِ مسرجُ)[٥].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴾ [سورة سبأ: ١٦]. حيث ذكروا أن الخمط (يقال لكل نبت قد أخذ طعماً من مرارة حتى لا يمكن أكله) وقيل: شجر له شوك، وقيل: الخمط في الآية: شجر قاتل أو سم قاتل، وقيل غير ذلك[٦]. فإنه من الواضح أنّ هكذا نباتات لايُقال عنها أنها جنة، بل هي صحراء ذات نباتات شوكية، ولكنه عبر بذلك من باب المشاكلة أيضاً، حيث ذكر الجنتين:

(٣) المدني، علي خان، رياض السالكين ص٤٧.
(٤) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب ج١٥ ص ٣٤.
(٥) السمعاني، منصور بن محمد، تفسير السمعاني ج١ ص ١٩٤.
(٦) ابن منظور، محمد، لسان العرب ج٧ ص ٢٩٦.

{وبدلناهم بجنتيهم جنتين}[٧].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾[٨]. بناءً على أنّ المراد بالذي بيده عقدة النكاح هو الزوج، فيكون المعنى إنه لو حصل الطلاق قبل الدخول فيجب على الزوج إعطاء نصف المهر إلا أن تعفو المرأة فتسقط حقها، أو يعفو هو فيهبها كل المهر لا النصف فقط، فعبّر عن هبة الزوج للنصف الثاني بالعفو، مع أنه ليس كذلك، إذ هو منح وإهداء، ولكن من باب المشاكلة، من جهة أنه ذكر عفو النساء: {إلا أن يعفون..}.

إذا اتضح ما ذكرنا فنقول: ما نحن فيه كذلك هو من باب المشاكلة، فقوله تعالى ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ أي مجازٍ لخداعهم، وكذا قوله: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ أي يُجازي استهزاءهم. وقوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾. أي أجازي كيدهم. وقوله: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾. أي جازاهم على نسيانهم.

ولذا فقد ورد في الدعاء: (ومن كادني فَكِدْهُ)[٩]. أي جازه، وسماه كيداً أيضاً من باب المشاكلة.

جاء في كتاب مختصر المعاني للتفتازاني: (المشاكلة وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه (أي ذلك الشيء) في صحبته (أي ذلك الغير) تحقيقاً أو تقديراً... فالأول... كقوله: قالوا اقترح شيئاً... لك طبخه، قلت: اطبخوا لي جبة وقميصاً أي خيطوا، وذكر خياطة الجبة بلفظ الطبخ لوقوعها في صحبة طبخ الطعام، ونحوه: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾ [سورة المائدة: ١١٦]، حيث أطلق النفس على ذات الله لوقوعه في صحبة نفسي. والثاني وهو مايكون وقوعه في صحبة

(٧) الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير جوامع الجامع ج٣ ص٩٦.

(٨) ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٧].

(٩) ابن طاووس، علي بن موسى بن جعفر، إقبال الأعمال ج٣ص٣٣٧.

الغير تقديراً نحو قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾[سورة البقرة: ١٣٦] إلى قوله: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٣٨].. أي تطهير الله، لأن الإيمان يطهر النفوس..) ثم ذكر أنه إنما عبّر عن التطهير بالصبغة من باب المصاحبة التقديرية، لوقوعها في مصاحبة صبغة النصارى تقديراً، (كما يدل عليه سبب النزول) وهي لديهم عبارة عن تطهير أبنائهم (ويسمى بالتعميد)، لينالوا صبغة الإيمان، يعني: صبغنا الله بالإيمان صبغة، ولم يصبغنا صبغتكم أيها النصارى، فعبّر عن الإيمان بصبغة الله للمشاكلة، لوقوعه في صحبة صبغة النصارى تقديراً، بقرينة سبب النزول[١٠].

في كتاب البليغ: (المشاكلة هي ذكر الشيء بلفظ غيره لمصاحبته ذلك الغير تحقيقاً أو تقديراً. فالأول نحو: قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه. قلت: اطبخوا لي جبة وقميصاً. ذكر خياطة الجبة بلفظ الطبخ لمصاحبته طبخ الطعام، ونحو (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك)، حيث أطلق النفس على ذات الله تعالى لمصاحبته «نفسي». والثاني نحو التعبير عن الإيمان بالله بـ(صبغة الله) لمصاحبته صبغة النصارى تقديراً بقرينة النزول في قوله تعالى ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ وَمَنۡ يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾. (صبغة الله) بمعنى تطهير الله مصدر مؤكد لآمنا بالله لأن الإيمان يطهر النفوس)[١١].

وبناءً على ماذكرنا فليس المراد من المكر والكيد والخداع والاستهزاء وكذا النسيان لدى نسبتها إلى الله معانيها الحقيقية بل هي بمعنى المجازاة، بدليل قاعدة المشاكلة في البلاغة.

الجواب الثاني:

وهناك جواب آخر، أشار إليه بعض المفسرين[١٢]، وهو أن كلمة المكر في

(١٠) التفتازاني، مسعود بن عمر، مختصر المعاني ج١ ص ٢١٨ - ٢٢٠.

(١١) الشيرازي، أحمد أمين، البليغ ص ٢٥٢.

(١٢) ينظر: الرازي، فخر الدين، تفسير الرازي، ج٨ص٧١ والشيرازي، ناصر

أصل اللغة لاتدل على معنى سلبي.

جاء في كتاب العين: (المكر: احتيال [في خفيـــة]، والمكر: احتيال بغير ما يضمر)[١٣].

فـإن الاحتيـال الـذي هـو (الحـذق وجـــودة الـنـظـر والـــقـــدرة عـلـى دقـة التصرف)[١٤].

قد يكـون في مورد شر فيكون شراً، وقد يكون في مورد خير فيكون خيراً. ولـو فسرنا الاحتيال بأنه طلب الحيلة والوسيلة في كيفية التعامل مع الطرف الآخـر، فكذلك لايكون المكر مذموماً مطلقاً.

وجـــاء في كـتـاب الـفـروق اللغوية للعسكري أن المكر في اللغة (هو التدبير على العدو)[١٥]، وفي مفردات الراغب إنه (صرف الغير عما يقصده بحيلة).

وبناء على كل هذا فالمكر بحد ذاته- بحسب المعنى اللغـــوي -ليس فعلاً مذموماً، وإنما يختلف بحسب المورد فلو لوكان بهدف الإضرار بالغير أو إيذائه من دون استحقاق، كان مذموماً، وإلا فلا. ويمكن تأييد ذلك بأن القرآن الكريم قد عبّر عن بعض المكر بأنه سيئٌ، وهذا يعني أنّ هناك مكراً جيداً وحسناً، قال تعالى: ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [سورة فاطر: ٤٣]. لا يقـــال: إن الوصف ليس له مفهوم في الأصـول كما حُقق في محله، إذ قـد يكون القيد توضيحياً لا احـترازيـاً، أي المكر الموصوف بأنه سيئ (الذي صفته الملازمة له دوماً هي السـوء)!. لأننـا نقول: إن الأصل في القيود هو الاحترازية، وهذا الأمر هو مايبني عليه العرف، ويفهمه لدى ذكر القيد، إلا أن يقوم الدليل على الخلاف، كما في قوله تعالى: ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّتِى فِى حُجُورِكُم ﴾. فـإن أي شخصٍ يسمع مثل هذه العبارة يتبادر إلى ذهنه أن كونها في حجر الزوج هو قيد في تحريم

مكارم، الأمثل ج١٢ ص٩٢.

(١٣) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين ج٥ ص ٣٧٠.

(١٤) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب ج١١ ص ١٨٥.

(١٥) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، الفروق اللغوية ص٢٠٧.

الزواج منها، لكن حيث دلّ الدليل على أنه لا مدخلية لمثل هذا القيد حملناه على التوضيح (وأنه يشير إلى حالة الغالبة من كون الربيبة في بيت الزوج).

ولذا قال الراغب: (المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة وذلك ضربان: مكرٌ محمود وذلك أن يُتحرى بذلك فعل جميل على ذلك قال ﴿ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ ومذموم وهو أن يُتحرى به فعل قبيح، قال (ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله)[16].

نعم العرف غالباً يستعمل كلمة المكر في المعنى السلبي، ولذا فقد صار هذا المعنى هو الذي تنصرف إليه الأذهان لدى إطلاق هذه المفردة.

والكلام نفسه يأتي بالنسبة إلى الخداع، فإنه مرادف للمكر: ففي الصحاح: (المكر: الاحتيال والخديعة[17]. وفي معجم مقاييس اللغة أن المكر هو: (الاحتيال والخداع)[18].

وهذا يعني أن الخداع أيضاً هو الاحتيال في خفاء، أو التدبير في خفاء على خلاف مايتوقع الخصم أو من حيث لايحتسب. ومن ثَمّ فقد يكون أمراً سيئاً وقد يكون حسناً.

وهذا الكلام أيضاً ينطبقُ على الكيد. ففي معجم المقاييس: (الكاف والياء والدال أصل صحيح يدل على معالجة لشيء بشدة، ثم يتسع الباب، وكله راجع إلى هذا الأصل. قال أهل اللغة الكيد المعالجة. قالوا وكل شيء تعالجه فأنت تكيده. هذا هو الأصل في الباب ثم يسمون المكر كيداً)[19].

الاستدراج:

أما صفة الاستدراج، فقد جاءت في موضعين من القرآن:

الموضع الأول في سورة الأعراف: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ

(١٦) الراغب، الحسين بن محمد، مفردات الراغب ص ٤٧١.
(١٧) الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح ج٢ ص ٨١٩.
(١٨) ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة ج٥ ص ٣٤٥.
(١٩) م ن ص ١٤٩.

كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

الموضع الثاني في سورة القلم: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [سورة القلم: ٤٤-٤٥].

والاستدراج هو الأخذ بالتدريج[٢٠].

الأقوال في غاية الاستدراج:

قيل المراد الاستدراج إلى الموت، أي إخفاء وقت الموت عنهم فيغفلون عنه، ويقعون في المعاصي ثم يأتيهم الموت: قال الكعبي(من المعتزلة): (المراد سنستدرجهم إلى الموت من حيث لا يعلمون، وهذا هو الذي تقتضيه الحكمة فإنهم لو عرفوا الوقت الذي يموتون فيه لصاروا آمنين إلى ذلك الوقت ولأقدموا على المعاصي. وفي ذلك إغراء بالمعاصي)[٢١].

وقيل الاستدراج إلى العقاب في الآخرة بتركهم يعملون مايريدون في الدنيا: الجبائي: (سنستدرجهم إلى العذاب من حيث لا يعلمون في الآخرة، وأملي لهم في الدنيا توكيدا للحجة عليهم إن كيدي متين فأمهله وأزيح الأعذار عنه ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة فهذا هو المراد من الكيد المتين)[٢٢].

ويحتمل أن يكون المعنى نتركهم في غيهم ثم نأخذهم بغتة. وهو المفهوم من الطوسي[٢٣].

ويحتمل أن يكون قد عبّر بالاستدراج من باب المشاكلة، حيث سمى جزاء استدراجهم الناس إلى المعاصي استدراجاً، فيكون من المشاكلة (القسم الثاني)، وهو ذكر الشيء بلفظ غيره لمصاحبته لذلك الغير تقديراً لا تحقيقاً[٢٤].

والمراد بالاستدراج كما دلت على ذلك الروايات: أنه كلما تمادى العبد في طريق الغي والضلال والمعاصي، زاد الله عليه النعم، حتى يكون أبعد عن

(٢٠) ينظر: القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، تفسير القرطبي ج٧ص٣٢٩.
(٢١) الرازي، فخر الدين، تفسير الرازي ج ٣٠ ص٩٧.
(٢٢) م ن.
(٢٣) ينظر: الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان ج٥ ص. ٤١.
(٢٤) ينظر: م ن ج٥ ص٤٢.

الاستغفار والتوبة والأوبة، حتى يأخذه الله فجأة، فتكون عاقبته عاقبة السوء والوبال.

ففي الكافي بسنده (سئل أبو عبد الله عليه السلام عن الاستدراج، فقال: هو العبد يذنب الذنب فيملى له ويجدد له عندها النعم فتلهيه عن الاستغفار من الذنوب فهو مستدرج من حيث لا يعلم). وروى بسنده عن سماعة بن مهران قال: (سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله (عز وجل): ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾. قال: هو العبد يذنب الذنب فتجدد له النعمة معه تلهيه تلك النعمة عن الاستغفار من ذلك الذنب)[٢٥].

وهذا يعني أنّ الإنسان حينما يختار طريق الشقاء والبعد عن الله تعالى فإن الله (عز وجل) من باب العقاب له يفعل به مايجعله يستمر على غيه بل يزداد غياً. وهو أن يغدق عليه النعم، فيظن أنه في مأمن وبالتالي يزداد طغياناً وعتواً -وهذا معنى الاستدراج -وفي لحظة يأخذه الله على حين غرة، لينتهي كل شيء، فيخلد في العذاب الأليم والجحيم المقيم. وهذا عين ماصرح به القرآن في موضع آخر حيث قال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٨].

والإشكال هنا: أليس هذا الاستدراج ظلماً من الله عز وجل؟!. أليس اللازم أن يفعل الله بهذا الإنسان المسكين مايردعه عن معصيته وعن غيّه، لكي يرجع ويؤوب إلى طريق الصواب، لا أن يعمل به مايدفعه إلى أن يزيد غياً وطغياناً، أي يستدرجه إلى الهلاك والخسران المبين؟!.

الجواب:

أولاً: إن هذا الفعل من الله لايمنع من الهداية، نعم تصعب معه الهداية. يعني أن الإنسان المنحرف والضال مهما أغدق الله عليه النعم، هذا لايسلبه تكويناً القدرة على التوبة والأوبة، بل غاية الأمر أنه كلما ازدادت ملذاته وأغدقت عليه النعم، أمن العقاب، وبالتالي فإن دافع

(٢٥) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ج ٢ ص ٤٥٢.

التوبة والأوبة يضعف لديه، هذا غاية مافي الأمر، وأما أنه لماذا يفعل الله به ما يؤثر في استمراره على الضلالة، ولايفعل به مايردعه وينبهه لعله يعود!. فالجواب: إن هذا هو العقاب الطبيعي له على غيه، فإن الإنسان حينما يبتعد عن الله، فمن الطبيعي أن يبتعد الله عنه بالألطاف، وبمقدار مايبتعد، يبتعد الله عنه حتى يصل إلى درجة: ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾، (هذا مع أن الاستدراج ليس لكل العصاة بل لفئة خاصة منهم كما سيتضح في الجواب الثالث) وإذا اقترب العبد اقترب الله إليه بالألطاف، وكلما ازداد قرباً ازداد القرب الإلهي إليه حتى يصله إلى درجة (كنت بصره و سمعه ويده ولسانه).. فهذه معادلة. الطاعة تستوجب لطفاً، والمعصية تستوجب عقاباً، إضافة إلى أنّ بيان الله تعالى لهذه المعادلة هو بحد ذاته لطف بالعبد، حتى لايختار طريق الغواية، فتصعب عليه العودة.

ثانياً: إن الإنسان المقيم على القبيح إما أن يكون عالماً بذلك أو لا، وعلى الثاني فإما أن يكون قادراً على العلم به أو لا، فإذن يوجد لدينا ثلاثة أقسام من العصاة لا رابع لها:

١. المقيم على القبيح مع العلم والإصرار.
٢. المقيم على القبيح مع عدم العلم لكنه يستطيع أن يبحث ليصل إلى معرفة أنّ ماهو عليه قبيح أم لا.
٣. المقيم على القبيح مع عدم علمه بقبحه وعدم قدرته على الوصول.

أما الأول فإنه مادام عالماً بأنه مقيمٌ على القبيح ومع ذلك يرى النعم تتوالى عليه فإذن سيدرك لامحالة أن هذه النعم هي استدراج له لاثواب وجائزة، وهي مقدمة للفتك به، إذن كيف تكون جائزة وهو موقن -حسب الفرض -أنه على ضلال وسوء حال؟! فإذن لاظلم لهذا الشخص، وأما الثاني فإنه مادام يحتمل أنه على ضلال وغواية، ومع ذلك لم يبحث، فالعقل أيضاً يحكم أنه ليس بالضرورة أن تكون تلك النعم جزاء، بل قد تكون استدراجاً ومقدمة للأخذ. فلايستطيع أن يحرز أن ما هو فيه جائزة

وثـواب إلا بعد التيقن أنـه على الحق، وليس كذلك حسب الفرض.

وأما الثالث وهو المقيم على القبيح وليست له القدرة على معرفة الحق، فإنه مـن الـواضـح أنـه خـارج عـن موضوع البحث، أي ليس من ضمن من يُستدرج، وذلـك لأن الأدلـة القطعية دلـت على أن من ليس له القدرة -وهـم المسمون بـ(المستضعفين) أو (القـاصريـن)- لايعاقب، ولايُعـذّب، والكـلام عمن يُستدرج لكي يصل في النهاية إلى العقاب والعذاب، فهذا القسم إذن خارج عن البحث أصلاً.

ثالثاً: ليس كل العصاة أو المتمردين عـلى الله يـفـعـل الله بهـم ذلـك أعـنـي (الاسـتـدراج) بزيادة النعم، ولذا نحن نشاهد فعلاً الكثير من العصاة والمنحرفين يعيشون غاية البؤس والشقـاء في هذه الحياة.

إذن من هـــذا نفهم أنّ الاستدراج عادة مايتوجه إلى طبقـــة معينـــة من العصـــاة، ولعلهـم الذين يصلون إلى درجة كبيرة من العتو والطغيان كفرعون ونمرود وأبي جهل وأبي لهب وأشباههم، فيستحقون بذلك عقاب الاستدراج.

والشاهـــد أنّ الآيتين اللتين تحدثتا عن الاستدراج ذكرتا عنوان التكذيب لا الـكـذب!!. يعني لم تقل الآيـتـان: والذين كذَبوا.. فذرني ومن يكْذِب... بـل قـالـتـا: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾. التكـــذيب على وزن (تفعيـــل)، وهي من الصيغ التي تفيد الكثرة والزيادة، وتعني كثرة المعاندة لآيات الله.

قـــد يقول قائل: ولكننا نرى على أرض الواقـع كثيراً من الكفار العاديين غير العتاة والطغـــاة قد أملى الله لهم ووسع عليهم في دنياهم. الجواب: ليس كل توسعة هي استـدراج بالضرورة، وإلا فالمؤمن التقي الـــورع أيضاً قد يُوسّع عليه، ولكنه خارج عن موضوع الاسـتـدراج، وكـذا الـكـافـر الـقـاصر، والضال القاصر، كما أشرنا.

إذن فليس كـــل نعمة هي استدراج، فقد تكـــون كذلك وقد لاتكون، وبناء

عليه فليس كل نعمة مغدقة على أهل الضلال هي استدراج بالضرورة، الاستدراج بالنسبة إلى أهل الضلال والزيغ هو على نحو الموجبة الجزئية، يعني بعض هؤلاء تكون النعم المسبغة عليهم استدراجاً، وذلك نتيجة طغيانهم وعتوهم، وبعضهم لاتكون.

رابعاً: ليس كل الناس يدفعه تزايد النعم إلى الزيادة في الغي والضلال، بل على العكس هناك من يكون تدفق النعم سبباً في نجاته وعودته، وذلك لأنه يستشعر في نفسه حالة الخجل والحياء من الخالق العظيم أنه على الرغم من كل البعد والتمرد الذي يصنعه في مقابله، إلا أن ذلك الخالق يكافئ كل تلك الإساءات بالإحسان واللطف والعطف، ومن هنا قلنا: إنه ليس كل تزايد للنعم في حق أهل المعصية والضلال هو استدراج بالضرورة.

ولعل من المناسب هنا أن نستشهد بالقصة المنسوبة إلى إبراهيم عليه السلام حيث ذكروا أنه: (كان لا يأكل وحده، فإذا حضر طعامه أرسل يطلب من يأكل معه، فلقي يوما رجلا، فلما جلس معه على الطعام، قال له إبراهيم: سم الله، قال الرجل لا أدري ما الله؟. فقال له: فاخرج عن طعامي، فلما خرج نزل إليه جبريل فقال له: يقول الله إنه يرزقه على كفره مدى عمره وأنت بخلت عليه بلقمة، فخرج إبراهيم فزعا يجر رداءه، وقال: ارجع، فقال: لا أرجع حتى تخبرني لم تردني لغير معنى؟. فأخبره بالأمر، فقال: هذا رب كريم، آمنت، ودخل وسمى الله وأكل مؤمناً)[٢٦].

فنلاحظ كيف أن توالي النعم كان سبباً في استحياء هذا الكافر، ورجوعه إلى طريق الصواب.

خامساً: قد يقول قائل: ولكن بالرغم من كل ماذكرتم يبقى أنّ هذا الاستدراج بالنسبة للمستَدرج مُبعّد للمستدرَج عن الرجوع والأوبة، أوليس من الحري بالله أن يفعل بالعبد مايقرّبه إلى الطاعة لا مايبعده عنها. قلنا: إن الإخبار عن طريقة الاستدراج هو بحد

(٢٦) القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لآحكام القرآن ج٩ ص٦٨.

ذاتـه لطف مقـرّب. توضيح ذلـك: إن الله لو أخفى هذه الطريقة وسترها عن العالمين، طريقة الاستدراج بزيادة النعم، ثم في يوم القيامة فاجأ الخلق بها، فربما ورد الإشكال، فلقائل أن يقول: يا رب، لم فعلتَ بنا هذا؟!. لم زدتَ نعمنا فظننا أننا في مأمنٍ فزدنا في غينا، أما وقد بيّن الله طريقته هذه للعالمين، وأن من يطغى أمدّه في طغيانه، فاحذروا، ولاتغتروا بالنعم، ولاتركنوا إليها!.

فأين الإشكال هنا؟.

سـادسـاً: لنقل: إن ذلـك مـن جملة الامتـحـان. أي إن الله يمتحن هـؤلاء بزيادة النعم عليهم، وتصعيب الامتحان هـو نتيجة ماجنت أيـديهـم، كـما قال الـقـرآن: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾[سورة النساء: ١٦٠]. إذ لاشك أن تحريم الطيبات هو نوع تصعيب في الامتحان، والاختبار، والكثير ربما بسبب تلك الصعوبـــة يفشلون، ولكن هذا التصعيب هو نتيجة طبيعية لغيهم.

وليـس واجـبـاً أسـاسـاً عـلى الله أن يمتحن الخلق بالطريقة التي تعجبهم، أو الطريقة السهلة عليهم، نعم الذي يحيله العقل هو فقط التكليف بما لايُطاق.

وإلا لو كان التكليف بالأمـــــور الصعبة ممتنعاً لكان التكليف بالجهـــاد ممتنعاً!. وهو كما ترى!. ومنه يُعلـــم أن الابتلاء بزيادة النعم مع صعوبة التكليف بالرجوع عندئذ ليس من الممتنعات ولا من المحالات، ولاهو ظلم أو حيف.

والمثال الذي يوضـــح المسألـــــة جلياً، ما لو كان شخص مريضاً بمرض (الغرغرينـــا)، ويتوقف إنقاذ حياته على أن تُقطع ساقه!. فهل حكم الدكتور بهذا الحكم الصعب والشاق والمؤذي جداً في سبيل إنقاذ حياة هذا المريض حكم صائب أم خاطئ بنظر العقل السليم؟. وهل يُعدُّ فعل ذلك بالمريض ظلماً له؟.

فكذلك مانحن فيه.

الخلاصة:

إن الصفات المذكورة، والتي حسبها المستشكل نقصـــاً ينسبه القرآن إلى الله تعالى ليست كذلك!.

بل أكثر تلك الصفـــــات -كالكيد

والمكر والخداع -جيء بها إما من باب المشاكلة، أو أن لها معاني غير منافية للقداسة الإلهية، وأما صفة الاستدراج فقد اتضح بالبيان الذي بيناه أنها ليست منافية للكمال أولـلعدالة والحكمة الإلهيتين.

هذا والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على عباده الذين اصطفى.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١. ابن طاووس، علي بن موسى بن جعفر، إقبال الأعمال، تحقيق: القيومي، جواد، ط١، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤١٤ هـ.

٢. ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: هارون، عبد السلام، مكتبة الأعلام الإسلامي، ١٤٠٤ هـ.

٣. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، قم: منشورات أدب الحوزة، ١٤٠٥هـ

٤. التفتازاني، مسعود بن عمر، مختصر المعاني (معلومات الطبع غير مذكورة).

٥. الجوهري، أسماعيل بن حماد، الصحاح، تحقيق: أحمد، ط٢، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧.

٦. دكتر سها، نقد قرآن، طبعة ١٣٩١هـ ش، (بقية معلومات الطبع غير مذكورة)

٧. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. التفسير الكبير. ط٢. طهران: دار الكتب العلميّة.

٨. الراغب الأصفهاني، الحسين محمد، مفردات غريب القرآن، ط٢، دفتر نشر كتاب، ١٤٠٤ هـ..

٩. السمعاني، منصور بن محمد، تفسير السمعاني، تحقيق: ابن إبراهيم، ياسر و ابن عباس، غنيم ط١، الرياض: دار الوطن، ١٩٩٧ م.

١٠. الشيرازي، محمد أمين، البليغ في المعاني والبيان والبديع، ط١، ايران: انتشارات فروغي، طبع مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٢٢ هـ.

١١. الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ط١، تحقيق:

لجنة من العلماء الأخصائيين، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٩٩٥م.
١٢. الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان، تحقيق: العاملي، أحمد حبيب، ط١، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٩.
١٣. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، الفروق اللغوية، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، ط١، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٢ هـ.
١٤. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: المخزومي، مهدي والسامرائي، إبراهيم، ط٢، مؤسسة دار الهجرة، ١٤٠٩ هـ.
١٥. القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، تصحيح: البردوني، أحمد عبد العليم، بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، ١٩٨٥م.
١٦. الكليني، محمد بن يعقوب. الكافي. ط: ٥. تحقيق: الغفاري، علي أكبر. طهران: دار الكتب الإسلاميّة، ١٣٦٣ هـ-ش.